"ظاهرة الاغتراب في شعر ابن حيّوس" – دراسة موضوعيّة

د. إبراهيم عبدالكريم سلامة البطوش[1]* د. إلهام اسليم سلمان القرالة[2]

الملخص

تنهض هذه الدراسة بتبيان ظاهرة الاغتراب في شعر ابن حيّوس، وهو أحد أعلام الشعر العربيّ في العصر العباسيّ، ومذهبه سُنّي، ولكنّه اعتنى بمدح الفاطميّين وولاتهم.

ومن الخصائص التي طُبع عليها شعر ابن حيّوس فصاحة اللغة، وجزالة الألفاظ من غير إعراب، ومفرداته على كثرتها ليس فيها وحشيّ أو مستكره، وهو بصير في اختيارها، وصوغها، ووضعها حيث ينبغي أن تكون.

وقد عانى ابن حيّوس في حياته التي عاشها من مظاهر الاغتراب التي أوجدت في نفسه صراعاً نفسيّاً جعله يشكو هذا الاغتراب، ويتذمّر من الأحوال التي مرَّ بها، سواء أكان هذا الاغتراب اجتماعيّاً أم مكانيّاً وزمانيّاً أم نفسيّاً.

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ هذه الدراسة يسعى الباحثان من خلالها لجلاء جوانب الاغتراب التي لازمت مخيّلة الشاعر في كثير من قصائده، فعلى الرغم من أنّ ديوانه يُعدّ ديوان قصائد مدح مطوّلة، إلّا أنّه كثيراً ما كان يتقصّد الإشارة إلى الاغتراب جرّاء حالة الاضطراب التي شهدتها دمشق، وحلب، ومصر، في فترة الحكم الفاطميّ.

وعليه فقد وقع الاختيار على هذا العنوان لدراسة ظاهرة الاغتراب في شعر ابن حيّوس، وذلك للتعرّف على أبرز جوانب هذه الظاهرة من أسباب، وأشكال، وأنماط، تبيّنها مقاصد الشاعر، وذلك وفق المنهج الوصفيّ التحليليّ.

كلمات دلاليّة: ابن حيّوس، الاغتراب، المدح، الوزير اليازوريّ.

"The Phenomenon of Expatriation in the Poetry of Ibn Hayoos" - An Objective Study

Abstract

This study aims to expose the phenomena of expatriation in the poetry of Ibn Hayoos, one of the most important Arabic poets of the Abbasid era. His philosophy is Sunni, yet he made sure to praise the Fatimids and their kings.

Some of the characteristics of Ibn Hayoos' poetry are the eloquence of the language and the purity of the words without modification into Arabic, and despite the abundance of his vocabulary, there was nothing desolate or unpleasant; he was endowed with eyesight in selecting, forming, and placing them correctly.

Throughout his life, Ibn Hayoos experienced indications of alienation that caused psychological tension

(1) أستاذ مساعد في تخصص اللغة العربية وآدابها، جامعة الزيتونة الأردنية، الأردن.

(2) أستاذ مشارك في تخصص اللغة العربية وآدابها، كلية الكرك الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.

* *الباحث المستجيب:* d.ibraheembtoush@gmail.com

in him, prompting him to complain about the situations he faced, whether they were social, geographical, temporal, or psychological.

In relation to the foregoing, the researchers hope that this study will make explicit the aspect of expatriation that accompanied the poet's imagination in the majority of his poems. Although his divan is considered a divan of long praise poems, he frequently intended to refer to expatriation as a state of disorder witnessed in Damascus, Alpo, Egypt during the Fatimid rule.

As a result, this title was chosen to investigate the phenomena of expatriation in Ibn Hayoos' poetry in order to discover the most significant characteristics of this phenomenon, such as the causes, forms, and patterns followed by the poet's objectives using the analytical descriptive methodology.

Key words: Ibn Hayoos , Expatriation , Praise , Minister Yazouri.

تقديم

يعد الكشف عن مظاهر الاغتراب في شعر ابن حيّوس ميزة فارقة في هذه الدراسة، إذ سعى الباحثان في هذا الصدد لتبيان المضامين والأركان الموضوعيّة التي تمثّلت في ظاهرة الاغتراب عند ابن حيّوس، بالإضافة إلى الشكوى التي عبّر عنها الشاعر في كثير من قصائده، والحنين الذي لازمه سواء أكان هذا الحنين في قصائد خالصة لهذا الغرض، أم جاء هذا الحنين في خضمّ حديثه المدحيّ الموجّه لممدوحيه في جلّ قصائده.

أهميّة الدراسة

من خلال البحث وتقصّي الدّراسات السابقة التي تناولت الشاعر ابن حيّوس، لم يعثر الباحثان إلا على دراسات قليلة حوله، فهنالك دراسة للصورة الفنيّة في شعر ابن حيّوس لم تتناول موضوع دراستنا –الاغتراب–، بالإضافة لوجود دراسة تتمحور حول مفهوم البطولة في شعر ابن حيّوس، وعليه فإنّ هذه الدراسة تنهض بجلاء هذه الظاهرة المعبّرة عن اغترابه وما نجم عنه، وذلك من خلال تتبع نماذج شعريّة متعدّدة ومتنوعة للوقوف على أبعاد هذه الظاهرة وأركانها.

أهداف الدراسة

إنّ الغاية من هذه الدراسة تتمثّل بالإفصاح عن أبرز جوانب الاغتراب التي كان يبثّها ابن حيّوس من خلال قصائده، وما نتج عن هذا الاغتراب من مضامين، تحدّث وأشار إليها الشاعر في قصائده، فجاءت هذه الدراسة تحمل الجزئيات التالية:

- **تمهيد يتضمن:**

- التعريف بالشاعر وحركة الشعر في عصره.
- الاغتراب في الشعر العربي، المفهوم والمضامين.

- **الاغتراب في شعر ابن حيّوس:**

- الاغتراب الاجتماعيّ.

- الاغتراب المكانيّ والزمانيّ.

- الاغتراب النَّفسيّ.

سبب اختيار هذه الدراسة

إنّ الهدف من دراسة ظاهرة الاغتراب لتبيان جوانب الشكوى والحنين عند ابن حيّوس هو المطلب الذي جاءت من أجله هذه الدراسة بشكل محدّد، إذ لم يهتم الباحثان بالجانب المدحيّ الذي جاءت جلّ أحاسيسه ومشاعره الشاكية والمغتربة ضمنها، وإنما كان التركيز فقط على جلاء هذه الظاهرة في شعر ابن حيّوس، وتوضيحها، وكيف قدّمها الشاعر للقارئ.

مشكلة الدراسة

لم يواجه الباحثان عثرات في منهجية هذه الدراسة، فالاغتراب وما يرافقه من شكوى وحنين من المسائل التي طرقها الباحثون والنقاد في الشعر العربيّ في ساحة الأدب، إذ تُعد هذه الظاهرة مرافقة للشعر العربيّ منذ بداياته، واستفاضت هذه الظاهرة بالدراسات المبينة والموضحة لها في هذا الجانب، ولكن كان لقلة الدراسات النَّفسيَّة لشعر ابن حيّوس أثر بعدم تكوين صورة واضحة تعكس للقارئ نفسيَّة هذا الشاعر ودواخله، لذا سعى الباحثان لتبيان هذه الظاهرة لعلهما يقفان على بعض الجوانب النَّفسيَّة التي قادت الشاعر للبوح بالشكوى والحنين جراء اغترابه.

وعليه، فقد اعتمد الباحثان على تتبع النماذج الشعريّة الدَّالة على هذه الظاهرة في شعر ابن حيّوس، وذلك من خلال الاستعانة بالمنهج الوصفيّ التحليليّ.

تمهيد

- التعريف بالشاعر وحركة الشعر في عصره

هو أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيّوس بن محمد بن المرتضى بن محمد بن الهيثم بن عدي بن عثمان الغنوي الدمشقي، الملقب بالأمير مصطفى الدولة، الشاعر المشهور (ابن خلكان، شمس الدين، ج2، ص13)، ويتصل نسبه بقبيلة (غَنّي) بن أعصر، وهي من العرب العدنانية، كانت منازلها في الجاهلية بنجد مجاورة لطيء، ونزحت طوائف منها بعد الإسلام إلى العراق، والجزيرة، والشام (ابن حزم، علي بن أحمد، ص236-237).

ولِدَ ابن حيّوس في دمشق سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، وحفظ القرآن الكريم وبدأ يفد على العلماء، ومن أشهرهم خاله ابن الجندي الغسَّاني (ضيف، شوقي، ص192)، وكانت حياة ابن حيّوس ميسورة الحال بشكل جيد، حيث جمع بين الثراء والأدب في آن واحد، فأبوه من أهل الثراء، وأخواله من ذوي العلم والأدب، إذ ذكر صاحب مسالك الأبصار أنّ: "ابن حيّوس من بيت يخيم على منازل النجوم فخاره، ويحوّم على مناهل الغيوم مطاره" (العمري، ابن فضل الله شهاب الدين، ج1، ص341).

وفي سنة ست وأربعمائة زار الوزير أنوشتكين الدّزبري[1] أحد وزراء الحاكم بأمر الله الفاطميّ والد ابن حيّوس في دمشق، وكان هذا اللقاء الأول بينهما، حيث بقيت صورة الوزير عالقة بتفكير ابن حيّوس، واقتربت الخطوط بينهما عندما هيئ للوزير الدّزبري أن يتسلم الحكم على دمشق سنة عشرين وأربعمائة، وحينها كان ابن حيّوس شاباً يافعاً متمرّناً على نظم الشعر وصياغته.

وممَّا تجدر الإشارة إليه أنّ ابن حيّوس شاعرٌ مدَّاح، حيث تنقّل في مدائحه بين وزراء الدولة الفاطميّة، بدءاً بالوزير الدّزبري، وبعد ذلك وجه مدحه نحو الوزير اليازوري[2]، أحد أعوان الخليفة الفاطميّ آنذاك، وبهذا أصبح ابن حيّوس شاعر البلاط الفاطميّ من خلفاء ووزراء.

وبعد هذا الرخاء الذي عاشه ابن حيّوس في كنف الخلافة الفاطميّة ووزرائها، تنقلب الحال سياسيّاً في دولة الفاطميّين رأساً على عقب، فتتضعضع أحوال تلك الخلافة الحاكمة في مصر وبلاد الشام، وكان ذلك سنة أربع وخمسين وأربعمائة، "فانتشرت الفتن، وعمّ الخراب والدمار تلك البلاد" (ابن الأثير، أبو الحسن عزالدين، ج10، ص23).

وبعد هذه الأحوال دخل ابن حيّوس حلب بمعيّة نصر بن علي بن منقذ، وكان ذلك سنة 464هـ، فوجّه مدحه لمحمود بن نصر، إلى أن انتهت حياته وتوفّي في حلب سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، تاركاً وراءه ديوان شعر جاءت جلّ قصائده مطوّلة للمدح، حيث بلغ عدد قصائده مائة وعشرون قصيدة، منها مائة واثنتا عشرة قصيدة خالصة في المدح، "فدار معظم شعره في المديح، واضطر إلى الدفاع عن عقائد الإسماعيليّة وسلطان الفاطميّين على غير عقيدته السنيّة"

(1) هو الوزير شرف المعالي أبو منصور الدّزبري، ت 433هـ، كان رجل دولة وقائد عسكري فاطميّ، تنقَّل بالجيوش الفاطميّة في بلاد الشام ومصر، انظر ترجمته في: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ دمشق، ج3، ص151، دار الكتب الظاهرية، دمشق.

(2) هو الوزير الحسن بن علي بن عبدالرحمن اليازوري، أحد وزراء الخلفاء الفاطميين، ولد في بلدة يازور، اتصل بعهده بالمستنصر الفاطمي حاكم مصر، فعينه وزيراً وقاضياً، انظر ترجمته في: الزركلي، خيرالدين، الأعلام، ط15، ج4، ص388، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2006م.

(سلّام، محمد زغلول، ص249).

أمَّا حركة والأدب الشعر في عصر ابن حيّوس فقد ازدهرت بشكل ملحوظ، وكانت بيئة بلاد الشام ومصر مواكبة لتقدم الأدب شعراً ونثراً، وخاصة في ظل حكم الفاطميّين الذين وفدوا إلى مصر وبلاد الشام قادمين من بلاد المغرب الإسلاميّ، إذ سعوا إلى تمكين قاعدة حكمهم بشتَّى الوسائل والسُّبل.

وكان ابن حيّوس من الشعراء الذين رافقوا خلفاء دولة الفاطميّين، ووزرائهم، وولاة أمرهم الذين كانت تُعهد لهم دفة القيادة في بلاد الشام وحلب وأعمالها، فاستطاع ابن حيّوس أن يوائم هنا وهناك، فتارة تجده في مصر وضمن بلاط الخليفة الفاطميّ يمدحه ويعلي من شأنه، والآخر يغدق عليه العطايا والهبات، وتارة يرافق الوزراء الذين يديرون البلاد في حلب كاليازوري، والدزبري، وينظم بهما المدائح التي تعلي من شأنهم وتمجدهم، فكانت هاتان البيئتان ملائمتين لنظم الشعر وقوله على ألسنة الشعراء بفعل الأحداث السياسية، وغيرها من الأحداث.

وقد أورد الثعالبي في يتيمة الدهر تفسيراً لتقدّم الشعر في بلاد الشام آنذاك، إذ " لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهليّة والإسلام....، والسبب على تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيَّما أهل الحجاز، وبُعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحي) العراق ومداخلتهم إياهم....، ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان ...، وهم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين أدوات السيف والقلم، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده، ويثبت على الجيّد منه فيجزل ويفضل، انبعثت قرائحهم في الإجادة، فقادوا محاسن الكلام بألين زمام، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا" (الثعالبي، أبو منصور عبدالملك، ج1، ص33-43).

ومضت الشام في نهضتها الشعريّة وظهر فيها أمثال عبدالمحسن الصوريّ وأبي الرقعمق والواساني، وجميعهم ترجم لهم الثعالبيّ، وقد أشاد بطائفة من قدمائهم، مثل البحتري، وأبي تمام، وطائفة من محدثيهم بعدهما مثل ابن سنان الخفاجيّ، وابن حيّوس (ضيف، شوقي، ص127).

- الاغتراب في الشعر العربيّ، المفهوم والمضامين

ورد في لسان العرب معنى لمفردة (غرب)[1]، وهي تعني: الذهاب والتنحّي عن الناس، وغَرُبَ عنه يَغْرُبُ غَرْباً، وغَرَّب، وأَغْرَبَ وأَغْرَبهُ، نحَّاه، والغُرْبة والغَرْب: البُعد والنوى، ويقال: أغْرَبته وغربته إذا نحيته وأبعدته، وفي الحديث أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– أمر بتغريب الزاني إذا لم يحصن (الجوزية، ابن القيم، ص234،)، وهو نفيه عن البلاد.

ويقابل كلمة "الاغتراب" في اللغة الإنجليزيّة مصطلح "Alienation" وهو اسم مشتق من الفعل اللاتينيّ"Alienave"، والذي يعني الانتزاع أو الإزالة (Schacht R, Alienation, P65).

وقد استخدمت الكلمة اللاتينية " الاغتراب" بأساليب مختلفة للتعبير عن الشعور الذاتيّ بالغربة أو الانسلاخ "Detachment"، سواء كان عن الذات أو عن الآخرين، وكذلك في مجال القانون لتفيد نقل ملكية شخص ما إلى شخص آخر، مثلاً كقيام شخص ما بتغريب شيء ما يملكه كالأراضي والمنازل (حمَّاد، حسن، ص14).

أمَّا الاغتراب اصطلاحاً فقد تم التعريف له نتيجة لمكونات فلسفيّة متعدّدة، كان من أهمها نظرية "الفقد الاجتماعيّ"، إذ تعدّ هذه النظريّة المصدر الفلسفيّ الأساس، وتقوم هذه النظريّة على مبدأ تعاقديّ" التنازل أو التخلّي"، ففكرة "العقد" التي تنصّ على تنازل الأفراد عن بعض حقوقهم الطبيعية للسلطة هي في أصلها قائمة على الاغتراب، لكنه اغتراب طوعيّ بإرادة الإنسان، لأنّ فيها حفظ أمنه وحريته من خلال السلطة (عبدالجبار، فالح، ص17).

وهذا ما أثبته العالم "جان جاك روسو"، إذ قسّم الاغتراب الإنساني إلى نوعين تبعاً لمفهوم نظريّة العقد الاجتماعيّ، الأول أسماه بالاغتراب القسريّ، وهو ما يعود إلى زمن الإقطاع، أمّا الثاني فهو الاغتراب الطوعي، وهذا ناشئ من طبيعة انتظام الإنسان تحت مظلة العقد الاجتماعيّ، وفقدانه بعض المكونات والحريّات التي يعيشها (روسو، جان جاك، ص58).

وظاهرة الاغتراب وما ينتج عنها من شكوى وحنين هي نوع من التخييل في قالبها ومضمونها العام، وهذه الظاهرة في مدلولها هي انعكاس ذهنيّ تستجيب له النفس التي تعيشها لمقتضى الصورة الفنيّة، فتلح في طلب حاجتها وموضوعها، أو تنفر منه وتبتعد عنه، وهذا ما يؤكّده مبدأ صناعة الشعر، فهذه الصناعة تقوم على مجموعة من الأسس والمقومات التي بدونها لا يكتمل البناء الشعريّ، فالشاعر سُمّي بهذا المسمّى؛ لأنّه يختلف عن الإنسان العادي في أنّ لديه إحساساً مرهفاً يفوق ما لدى الإنسان الطبيعيّ، ويمتلك عيناً لاقطة تستطيع تسجيل كلّ ما تراه حتى ولو كان الحدث الذي يعرضه علنيّاً

(1) ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، مادة: غَرَبَ.

ضئيل الشأن في ظنّنا، فتكون حينها قيمة العمل الأدبيّ بجودته شكلاً ومضموناً (عبدالباري، ماهر شعبان، ص37).

وعليه، "فالاغتراب في أبسط معانيه هو تصدّع لذات الفرد وانشقاقها، نتيجة عدم تواؤمها مع المجتمع والعالم المحيط بها" (الزعيم، أحلام، ص67)، وهو من المصطلحات ذات النشأة الفلسفيّة التي تشير إلى ذلك الإحساس بالعزلة، والضياع، والهروب، وعدم السيطرة، سواء أكان ذلك الإحساس مرتبطاً بعناصر اجتماعيّة، أم اقتصاديّة، أم مكانيّة، أم زمانيّة، ممَّا يقود الإنسان إلى النُّفور من هذا الإحساس، والثورة عليه، ومحاولة الوصول إلى سبل لمواجهة هذا الإحساس.

- **الاغتراب في شعر ابن حيّوس:**

- الاغتراب الاجتماعيّ:

يُعدُّ هذا النوع أحد ألوان الاغتراب التي عاشها الشعراء القدماء والمحدثون، وهو اغتراب مؤلم على الشاعر، إذ لا يستطيع أن ينأى بنفسه عن المجتمع الذي يعيش في ظلّه، وما لهذا المجتمع من ظروف وتبعيات تؤثّر بشكل مباشر على سير حياة الشاعر الذي يمثّل عنصراً من عناصر هذا المجتمع.

وعليه، فإنّ من أكثر العناصر الحياتيّة التي تؤثّر على الشاعر ما يتعلّق بالجوانب الاجتماعيّة؛ إذ إنّ الشاعر دائم النظر إلى ما يحيط به من عناصر المجتمع، ودائم التأمّل فيها، ما يجعله قادراً على وصفها والحديث عنها وفقاً لما تقتضيه عناصره الشعريّة، خاصة إذا اشتملت الحياة الاجتماعيّة من حوله على عناصر مؤدّية إلى النقد والاضطراب، كالتفريق بين أفراد المجتمع وفقاً لسبب ما، أو الحياة الخاضعة للعبوديّة وتقاليد الاستعباد وسائر هذه العناصر التي لها تأثيرها الكبير في حياة الشاعر الأدبيّة (إسماعيل، عزالدين، ص122).

إنّ مغادرة الأوطان وتركها هي غربة اجتماعيّة منها ما هو طوعيّ لتلبية حاجة في النفس، ومنها ما هو قسري جرَّاء ظروف خارجة عن إرادة الإنسان، فينتقل الفرد بفعلها إلى مكان جديد ومجتمع جديد، وهذا الشعور قد بدا في شعر ابن حيّوس في أكثر من موضع، فعندما تتالت الفتن على دمشق، وعمَّها الدمار، وفقد الأمن، وشاع الخوف، وذهبت الأموال، ونزح عنها أكثر سكانها، فبدا لابن حيّوس أن يتركها، فانفجر في صدره بركان من الشعر، فقال قبل أن يرحل عن دمشق (ابن حيّوس، الديوان، ج1، ص297-298):

لَقَدْ دُفِعْنَا إلى حَالَيْنِ لَسْتُ أَرَى ما بَيْنَ ذَاكَ وهَذا حَـــــظُّ مُخْتَـارِ

إمَّا المُقَامُ عَلى خَوفٍ ومَسْغَبَـةٍ أَو الرَّحِيْـــــلِ عَنِ الأَوطَانِ والدَّارِ

والمَوتُ أَيْسَرُ مِنْ هَذَا وذَاكَ ومَا كَرْبُ المَمَاتِ ولا فِي المَوتِ مِنْ عَارِ

مَنْ جَاوَرَ الأُسْدَ لَمْ يَأْمَنْ بَوَائِقَهَا ولَيْـــسَ لِلأُسْـــدِ إِبقَاءٌ عَلى الجَارِ

فالشاعر في الأبيات السابقة يشير إلى الدافع القسريّ الذي أرغمه على ترك وطنه، إذ لم يتبقَ له إلَّا خيار من اثنين، وكلاهما مُرٌّ على قلبه؛ إما أَن يبقى في وطنه خائفاً هلعاً وجائعاً، وإما أن يزمع الرحيل عن الديار والأهل، ولكنّه يفضّل الموت لمواجهة هذا الاغتراب المؤلم، "إذ دائماً ما يسعى الشعراء لاتّخاذ طرق لمواجهة عاصفة الاغتراب، ليصلوا بأنفسهم إلى حالة من العزاء الداخليّ للخلاص من الصّراع النَّفسي الناشئ عن هذا الإحساس العميق بالغربة والاغتراب" (إسكندر، نبيل رمزي، ص68).

وكان ابن حيّوس يعبّر عن مظاهر الاغتراب وما ينتج عنها من شكوى وحنين تُلازمه في بعض مدحيّاته، فهو في الأبيات التالية يشير إلى احتمائه وشعوره بالأمن مذ أَن يمَّم ممدوحه نصر بن محمود المرداسي[1]، أمير حلب، وكان ذلك حين خروجه من دمشق سنة 464هـ، فتركها مغيظاً محنقاً وخائفاً يترقب، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج2، ص657-658):

أَمِنْتُ مَا خِفْتُ مُذْ يَمَّمْتُ حَضْـرَتَهُ واعْتَضْتُ مِنْ عَدَمِ الإيْسَارِ وجْدَانَا

ولِلْحَمِيَّـــةِ لا عَنْ زَلَّةٍ حَكَمَـــتْ بِالبُعْـــدِ فَارَقْـــتُ أَخْداناً وخِلَّانَا

تُخِيفُنِـــي بَلَدٌ حَتَّـــى أَعُـــودَ إِلى أُخْـــرَى كَأَنِّي عِمْرانُ بن حِطَّانَا[2]

ومُذْ عَقَلْتُ المُنَى والعِيْسَ في حَلَبٍ حَلَلْـــتُ آمَـــنَ أَرْضِ اللهِ سُكَّانَا

لا يَطَّبِيْنِـــي مَكَانٌ بَعْـــــدَ ظِلِّكُمَا حَتَّى يَهُـــزَّ هُبُـــوبُ الرّيحِ ثَهْلانَا

فابن حيّوس في الأبيات السابقة يشير أيضاً إلى التغرّب الاجتماعيّ القسريّ، فهو يفارق الأوطان خوفاً، وليواجه هذا الاغتراب يلجأ إلى ممدوحه نصر بن محمود، فيجد في كنفه أمناً ممّا أخافه، بعد أن كان قد انكبَّ على وجهه هلعاً من

(1) هو نصر بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي، أمير حلب، تولى الحكم عليها بعد وفاة أبيه سنة 467هـ، قتله بعض الأتراك بعد سنة من حكمه، انظر ترجمته في: الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، ج11، ص532، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1986م.

(2) عمران بن حطان: من الخوارج، وهو أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهب بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، وكان رأس القعد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم، انظر ترجمته في: المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، ط3، ج3، ص124، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربين القاهرة، 1997م.

بلد إلى آخر، وكأنه عمران بن حطان الهارب من بلد إلى آخر، وما أن وجد أمنه في حلب، يدعو الله ابن حيّوس ألّا يحتويه مكان آخر غير ظلّ ممدوحه.

ومن مظاهر الإحساس بالاغتراب الاجتماعيّ عند ابن حيّوس الغدر من الناس ومن وقع بحكم الصديق أو الخليل، وهذا ظلم اجتماعيّ يؤجّج في نفس من وقع عليه الأسى والاضطراب، فهو في الأبيات التالية يشكو زماناً ظهرت به هذه الخصال عند بعضهم، إذ ضاعت الأمانة عند أصحابها، فلم يعد يأمن أحدهم أحداً، ولم تقف الأمور عند هذا الحدّ، إذ بضياع الأمانة أصبح الشاعر فقير الحال، حيث أبقى ما تبقّى له من المال أمانة عند أحدهم، وضاع ما أبقى عليه، فانفجرت في نفسه هذه المأساة، فعبر عن ذلك بقوله (ابن حيّوس، الديوان، ج2، ص466-469):

تَحَيَّفَنِـــي الزَّمَانُ بِكُلّ فَنٍّ ... فَمَا أَنفَـكَّ مِنْ دَاءٍ عُضَالِ

وأَعْوزَتِ الأَمانَةُ فِيْهِ حَتَّـى ... تَخَوَّفَتِ اليَمِيْنُ مِنَ الشِّمَالِ

وأَذْهَبَ كُلَّ مَا يَحْوِي ضَيَاعَاً ... فَهَا أَنَا ذَا بِنَارِ الفَقْرِ صَالِ

وقَدْ أَودَعْتُ مَا أَبْقَى صَدِيْقَاً ... فَعَرَّضْـــتُ البَقِيَّـــةَ لِلوَبَالِ

وَقَصَّـــــرَ عَنْ أَمَانَتِهِ كَأَنّي ... طَلَبْتُ الوَخْدَ مِنْ جَمَلٍ ثَقَالِ

فَلا تُرْكِنْ إِلى زَمَـــنٍ خَؤُونٍ ... لآمِلِـــهِ سَرِيْـــعُ الانتقال

فَمَا يَكُ فِيْهِ مِنْ خَيْـــرٍ وشَرٍّ ... قَلِيْلُ اللَّبْـــثِ مُنْتَظَرُ الزَّوالِ

لَقَدْ ضَلَّ امرُؤٌ رامَ اهتِضَامِي ... ولَسْتُ مُشَايِعَاً أَهْلَ الضَّلالِ

وما كان من هذا الظلم الذي وقع على ابن حيّوس، وضياع أمانته، وشعوره بالحزن لما آلت إليه صفات الناس في المجتمع، ليقرّر الرحيل وترك هذه البلاد، ليجبره ذلك الاغتراب الاجتماعيّ إلى اغتراب مكانيّ ترك في نفسه الأسى والألم، حيث قال:

أَرَى الأَكْدَارَ يَشْرَقُ شَارِبُـوهَا ... فَوَاشَرَقِـــي مِنَ المَاءِ الزُّلالِ

سَأَتْـرُكُ ذِي البِلادَ بِلا اخْتِيَارٍ ... وأَهْجُـــرُ أَهْلَهَا لا عَنْ تَقَالِ

بِحَالٍ لَوْ تَأَمَّلَهَا عَـــــــدُوّي ... لَسَاهَمَنِي الرَّزِيَّةَ أَوْ رَثَى لِي

وفي قصيدة لابن حيّوس جاءت خالصة لمضمون الشكوى، فإنّه يجسد من خلالها الاغتراب الاجتماعيّ الذي قاده

للبوح عن شكواه، وما يتجرع من الألم والشعور بالاضطهاد جرَّاء معاملة رجل يدعى "ابن السمسار"، حيث بعث ابن حيّوس إلى القاضي "عين الدولة" [1] يشتكي هذا الرجل، فقال (ابن حيّوس، الديوان، ج2، ص396):

كِلانَا إِذَا فَكَّرتَ فِيْـــهِ عَلى شَفَا وَقَدْ مَرَّ في التَّعلِيْلِ والمَطْلِ مَا كَفَا

وإِنّي لأُخْفِي مَا لَقِيْـــتُ صِيَانَةً لِعِرْضِكَ فَامْنُنْ قَبْلَ أَنْ يَبْرَحَ الخَفَا

مَالَكَ لا تُرْكِنْ إِلَيْـهِ فَلَو صَفَا لَكَ الدَّهْـرُ كَالعَهْدِ القَدِيْمِ لَمَا صَفَا

إذ تشير الأبيات السابقة أنّ ابن حيّوس في بداية الأمر كان يريد إخفاء ما تعرّض له من جور وظلم من ابن السمسار، وألَّا يُطلع عليه القاضي عين الدولة، ولكنّه قد نفد صبراً، وازداد حنقاً، فأنشد يقول (ابن حيّوس، الديوان، ج2، ص396-397):

تَـحَكَّمَ في دَارِ الوَكَالَةِ فَانْبَـرَتْ بِغَاراتِـهِ قَاعَاً كَمَا شَاءَ صَفْصَفَا

فَأَفْقَرَ واسْـتَغْنَى ومَا كَفَّ شَرَّهُ وحَازَ تُراثَ العَالَمِيْـــنَ ومَا اكْتَفَا

أَضَـافَتْ لَهُ تِلْكَ الإِسَاءَةُ وِحْشَةً مَخَافَةَ أَنْ يُجْزَى بِمَا كَانَ أَسْلَفَا

وهنا يكشف ابن حيّوس عن صفات هذا الرجل الذي كان يملك زمام الأمور في فرع من فروع الدولة، وهي دار الوكالة التي بدا تحكّمه بها واضحاً، فأصبح يديرها لأهوائه الشخصيّة، فأفقر العباد، وازداد ثراءً ولم يقنع، فبدا في أعين الناس والشاعر شخصاً كله سوءات موحشة.

وبعد ذلك يشير ابن حيّوس إلى سوء المعاملة التي تعرّض لها بشكل مباشر من هذا الرجل، حيث تقصده بالظلم وهضم حقوقه، ساعياً إلى إخراجه عن طور احتماله واصطباره، إذ بقي يعده بوعود كاذبة لا أساس لها من الاستحقاق، حيث قال:

تَـعَمَّدَنِـي بِالجَورِ كَي يَستَفِزَّنِي فَلا كَانَ مَا يَرجُو لَدَيَّ ولا اشْتَفَا

وسَـوَّفَنِـي حِيْنَـاً إِلى أَنْ شَكَوتُهُ عَـلى أَنَّنِـي لَمْ أَلقَ إِلَّا مُسَـوِّفَا

(1) عين الدولة: هو أبو الحسن محمد بن عبدالله بن علي بن أبي عقيل الصُّوري صاحب الساحل، وفي سنة 482هـ خرجت جماعة من مصر إلى الشام، فحاصروا مدينة صور، وكان قد تغلب عليهم القاضي عين الدولة، وامتنع عليهم، ثم تُوفي، انظر ترجمته في: ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني، الكامل في التاريخ، ط1، ج8، ص329، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1997م.

ومن مظاهر الاغتراب الاجتماعيّ التي عاشها ابن حيّوس تعرّفه على أُناس لا يحفظون الوداد، ولا يصونون الهوى والمحبة، فيؤجّج هذا الجانب في نفس الشاعر الأسى والحزن، ويشعره بفقد الأصدقاء الذين كانوا يحفظون الودّ والمحبة في عهد سابق، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج2، ص645):

أَسُكَّانَ نَعْمَانِ[1] الأَرَاكِ تَيَقَّنُـــوا بِأَنَّكُمْ في رَبْعِ قَلْبِـــــيسُكَّانُ

ودُومُوا عَلى حِفْـــظِ الوِدَادِ فَطَالمَا بُلِيْنَا بِأَقْوامٍ إِذَا حُفِظُـــوا خَانُوا

رَعَيْنَا لَهُمْ حِفْظَ الوِدَادِ فَمَا رَعَـــوا وصُنَّا هَوَاهُمْ أَنْ يُذَالَ فَمَا صَانُـوا

وهذا الاغتراب قاد الشاعر إلى آلام أخرى، فهو بفعل بعدهم عنه، لم يغمض له جفن، إذ يترقّب لمعان البروق فوق ديارهم، لتكون كالسيوف اللامعة وأغمادها أجفان الشاعر، حيث قال:

سَلُوا النَّومَ عَنّي مُذْ تَنَاءَتْ دِيَارُكُمْ هَلْ اكْتَحَلَتْ بِالنَّومِ لِي بَعْدُ أَجْفَانُ

وهَلْ جَرَّدَتْ أَسْيَافَ بَـــرْقٍ دِيَارُكُمْ فَكَانَتْ لهَا إِلَّا جُفُونِـــــي أَجْفَانُ

وممّا يُفزع ابن حيّوس ويدخله في اغتراب اجتماعيّ، ما يراه من تقلّب في الودّ عند بعضهم، إذ يشتكي ممّن يُظهرون المحبّة والودّ، ويخفون العداء والكره، حتى في ضحكهم وتبسّمهم يخفون العبس في سريرتهم، فيقطعون الوصل ويتظاهرون به، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج1، ص327):

فَيَأْسَاً فَمَا عَهْـــدُ الكَثِيْبِ بِعَائِدٍ إِلَيْكَ ولا أَيَّامُـــــهُ بِرَواجِـــــعِ

ولا وُدُّ مَنْ أَبْدَى لَكَ الــوِدَّ صَادِقٌ ومَا هُو إِلَّا خُدعَـــةٌ مِنْ مُخَادِعِ

فَمَا النَّاسُ إِلَّا ضَاحِكٌ وهُو عَابِسٌ سَرِيْرَتُهُ أَو واصِلٌ وَصلَ قَاطِـــعِ

حتى أنّهم من يغرّر بريقه الأنظار، فما يعدو سراباً، ومنهم من تحسبه شراباً ولكن لا يفيد شاربه، وأقوالهم لا تلتقي بفعالهم كما لا تلتقي ألوان الفقاعات في الخمرة، حيث قال:

فَبَعضٌ سَـــرابٌ غَرَّ بِالَّلمْعِ ظَامِئَاً وبَعضٌ شَـــرَابٌ لا يَسُوغُ لِجَارِعِ

مُخَالِفَـــةٌ أَقوالُـــهُمْ وفِعالُـــهُمْ كَمَا خَالَفَ الصَّهْبَاءَ لَونُ الفَواقِعِ

وبناءً على ما تقدّم، لقد كان للجوانب الاجتماعيّة السلبيّة أثرٌ بارزٌ وجليٌّ في إحداث غربة في نفس ابن حيّوس، فكانت هذه الغربة الاجتماعيّة محمّلة بالأسى والاضطراب واللوعة، فأحدثت صدعاً في حياة الشاعر، وأجبرته على الشكوى

(1) نعمان الأراك: وادٍ يقع بين مكّة والطّائف.

والتعبير عن حالة الرفض لمثل هذه المظاهر، فالأحداث التي مرّت بها دمشق، وما حلّ بها من دمار وخراب، كلّ ذلك جعل من ابن حيّوس مهاجراً قسريّاً رغم إرادته، بالإضافة إلى ظلم المجتمع والناس له، حيث لاقى من بعضهم الغدر، والخيانة، وضياع الأمانة، وإخفاء الكره والبغضاء، مع إظهار المحبّة والود بهيئة مزيّفة.

- الاغتراب المكانيّ والزمانيّ:

تعدّ الغربة المكانيَّة والزمانيَّة من أقسى أنواع الاغتراب الذي يتعرّض إليه الشاعر، فالبعد عن الأوطان فيه فقد لها، وللبيئة، والأهل، والأحبة، حيث يشكّل المكان حيزاً لا ينسلخ عن نفس الشاعر، وذلك لأنّه يمثل حاضنة لجميع مراحل حياته، وذكريات طفولته، وأيام لهوه، وصباه.

ويصطدم عادة الاغتراب مكانيّاً أو زمانيّاً بتشكُّل الشخصيّة لدى الإنسان، وتحتدم المواجهة مع الهويّة وإثبات الذات، ممّا ينتج عنه عزلة اجتماعيّة تغرق صاحبها بالأسى والاضطراب النفسيّ.

ويقع الشخص ضمن نزعات خاصة تقوده إمَّا إلى الحاجة الكبيرة للتشارك مع الآخرين ضمن زمانه ومكانه، أو نزعة معاكسة تتمثّل بنفوره من الزمان الذي يعيش فيه بأشخاصه ومكوّناته، ونفوره أيضاً من المكان الذي يعيش فيه بمكوّناته كلها، والأمران يشكّلان خطراً في قيام عناصر الاغتراب المكانيّ والزمانيّ لدى هذا الإنسان (فهمي، مصطفى، ص336).

وابن حيّوس من الشعراء الذين تجرّعوا مرار البعد عن الأوطان والشعور بالاغتراب الزمانيّ، إذ شعر – وهذا ما أثبتته أشعاره– في حالات كثيرة بفقدانه لأسمى غايات الوجود الإنسانيّ، ألا وهما المكان والزمان المقوّمان للنفس الإنسانيّة.

وفي إحدى مدحيّاته التي وجّهها لنصر بن محمود المرداسيّ، ينفطر قلب الشاعر شوقاً للديار وساكنيها، حتى وإن كانت مقفرة موحشة، فهي مربع الصبا، وجزء لا يتجزأ، فيبكي ابن حيّوس فراق تلك الديار والبعد عن أهلها، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج2، ص515–516):

أَحِنُّ لدَى المَنَازِلِ وهِي قَفْرٌ ... كَمَا حَنَّتْ لدَى البَوّ العُجُولُ

وأَشْتَاقُ الدّيَارَ وسَاكِنِيْـــهَا ... كَمَا يَشْتَاقُ صِحَّتَـــهُ العَلِيْلُ

بَكَيْـــتُ لِهَجْرِهِمْ حِيْنَاً وحِيْنَاً ... لِبُعْـــدِهِمُ وقَدْ أَزِفَ الرَّحِيْلُ

فَلَمْ تَذْرِ النَّوى والهَجْرُ دَمْعَاً ... تُجَـــادُ بِهِ المَعَالِمُ والطُّلُولُ

حتى أنّ هذا البعد والتغرّب المكانيّ لم يسعف ولم يبقِ للشاعر ما يجود به من الدموع على تلك الآثار الباقية من الديار.

وبعد ذلك يسير ابن حيّوس على طريقة الشعراء الجاهليّين الذين عبَّروا عن ألم الفراق والاغتراب، فدعا الله أن يجزي الرياح خيراً لما تحمله من رسائل تُمني النفس وتخفّف من التصدّع الذي يعيشه قلبه، فيُزجي مع تلك الرياح السلام (لسلمى)، ولعلّها هنا زوجة الشاعر، أو محبوبة وقع في هواها، حيث قال:

جَزَى الرّيْـــــحَ الدَّبُورَ اللهُ خَيْراً فَلِي مِنْهَا إِذَا هَبَّـــــتْ رَسُولُ

أُحَمّلُـــهُ إِلى سَلْمَـــــى سَلاماً تَرُدُّ جَوابَهُ الرّيْـــــحُ القُبُولُ

وعلى نفس تلك الشاكلة يشتكي ابن حيّوس مرار البعد عن الديار وساكنيها من الأهل والأحبة، ويحنّ إلى تلك الربوع التي تمتلئ بالذكريات والأحداث، ففي إحدى مدحيّاته لنصر المرداسيّ يفتتح قصيدته بالدعاء والطلب بأن تسقي السحب تلك الديار، التي جعلت الريح معالمها جليّة واضحة، بعد أن خلت من ساكنيها، فيرجو لها بالسقاية، ويذكر (سلمى) التي يحمله الحنين إليها، ويذرف الدموع على ما آلت إليه نفسه بعد ذلك الاغتراب، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج2، ص609):

يَا دَيْمَتَـــي نَـــوءِ الثُّرَيَّا دُومَا لِتُرَوّيَا بِالأَبْرَقَيْـــــنِ رُسُومَا

حُطَّا رِحَالَ المُزْنِ فَـــوقَ مَعَالِمٍ جَعَلَ الهَوى مَجْهُولَهَا مَعْلُومَا

ومَعَاهِدٍ عَهْـــــدِي بِهَا مَأْهُولَةً بِصَرِيْمِ إِنْسٍ لَمْ يَكُنْ مَصْرُومَا

وإِذَا الغَمَامُ عَدَا المَنَازِلَ صَـــوْبُهُ فَغَدَا عَلى أَجَإٍ[1] أَجَشَّ هَزِيْمَا

وسَقَى لِسَلْمَى دُونَ سَلْمَى[2] مَنْزِلاً أَضْحَى بِوسْمِيّ البُكَا مَوسُومَا

وفي موضع آخر يتوجّد ابن حيّوس لفراقه الديار ويشعر بالاغتراب الزمنيّ أيضاً، حيث يقول (ابن حيّوس، الديوان، ج1، ص312-313):

هُو ذَاكَ رَبْعُ المَالِكِيَّـــــةِ فَارْبَعِ واسْأَلْ مَصِيْفَاً عَافِياً عَنْ مَرْبَـــعِ

(1) أجأ: جبل يقع بطيء.

(2) سلمى: جبل يقع بطيء.

واسْتَسْقِ لِلْدِمَنِ الخَوالِي بِالحِمَـى غُرَّ السَّحَائِبِ واعْتَذِرْ عَنْ أَدْمُعِي

فَلَقَدْ فَنِيْـــنَ أَمَامَ دَانٍ هَاجِـــرٍ في قُرْبِـــهِ ووَرَاءَ نَآءٍ مُزْمِـــعِ

لو يُخْبِـــرُ الرُّكبَانُ عَنّي حَدَّثُوا عَنْ مُقلَةٍ عَبْرَى وقَلْبٍ مُوجَـــعِ

رُدّي لنَا زَمَـــنَ الكَثِيْـــبِ فَإِنَّهُ زَمَـــنٌ مَتَى يَرْجِعْ وفَاؤُكَ يَرْجِعِ

فابن حيّوس في الأبيات السابقة يقوده الحنين والشوق لتلك الديار، فيذكر منازل المالكيّة، ويطلب من السُّحب السُّقيا للدّمن في تلك المرابع، بعد أن قدّم الاعتذار عن دموعه التي جفَّت لكثرة بكائها، فمقلتاه بقين على الدوام تبكيان تلك المنازل، وينفطر قلبه على زمن ذهب ولن يعود إلا بعودة الوفاء.

ويأتي بعد ذلك ليبين ابن حيّوس سبب بعده عن تلك الديار، فهو قد رام العزَّ والفضل في أوطان أخذ ينشدها ويطلبها، مفارقاً بذلك ديار الشآم مفارقة الراحل المغترب، حيث قال:

ولَو إِنَّنِي أَنْصَفْتُ نَفْسِي صُنْتُهَا عَنْ أَنْ أَكُونَ كَطَالِبٍ لَمْ يَنْجَعِ

ولَقَدْ بَغَيْـــتُ العِزَّ مِنْ أَوطَانِهِ وتَرَكْـتُ أَهْلَ الشَّآمِ تَرِكَ مُوَدّعِ

وفي إحدى قصائده المدحيّة، يبدأ ابن حيّوس حديثه عن تعلّقه بالأهل والأحبة الذين قطع النوى عهده بهم، ويصف بأنّ هذا العشق قد تحكَّم به فجار عليه، ليصرح الشاعر بأنّ هذا العشق قد جاء بفعل التغرّب والبعد، وهو هنا يصرّح بالغربة بشكل مباشر، ويستحبب في هذا التغرّب تلك الرياح التي تهبّ من بلاد الشآم وتحمل ريَّا ساكنيها، فتهيج نفس الشاعر حنيناً لتلك الديار، فيذكرها بأسمائها، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج1، ص151-152):

هَواكُمْ وإِنْ لَمْ تُسْعِفُونَا ولَمْ تُجْدُوا عَلى مَا عَهِدْتُمْ وَالنَّوى لَمْ تَحِنْ بَعْدُ

وحَكَّمَكُمْ فِيْنَا الغَـــرَامُ فَجُـــــرْتُمُ وَكَمْ حَكَمَ المَوْلَـــــى بِمَا كَرِهَ العَبْدُ

غَرَامٌ كَمَا شَاءَ التَّغَرُّبُ والنَّـــوى وسُقْمٌ كَمَا تَهْـــوى القَطِيْعَةُ والصَّدُّ

ويَا حَبَّذَا رِيْحٌ عَلى مَا تَحَمَّلَـــتْ تَـــرُوحُ بِرَيَّاكُمْ مِنَ الشَّآمِ أَو تَغْدُو

ورَبْعٌ بِمُقْرى لا العَقِيْقُ وَلا اللّـوى ووِرْدٌ بِسَطْـــرَى لا العِرَارُ ولا المَرْدُ[1]

(1) مقرى: قرية في نواحي دمشق، العقيق: كل مسيل ماء شقَّه السَّيل في الأرض، اللوى: هو منقطع الرمل وموضع ووادي من أودية بني سليم، سطرا: من قرى دمشق، العرار: النرجس البري، المرد: ثمر الأراك.

وفي ضوء ما تقدّم، فقد بدا جلياً أثر الاغتراب مكانيّاً وزمانيّاً في أكثر من موضع عند ابن حيّوس، حيث كان البعد عن الأوطان وساكنيها يشكّل أرقاً في حياة الشاعر، ممَّا جعله كعادة الشعراء من قبله يستذكر العهد في تلك المنازل، ويصوّرها بالمقفرة الخالية من آثار الحياة، ويدعو لها بالسُّقيا بعد أن جفّت دموعه التي ودَّ أن يرويها منها، وأيضاً كان الاغتراب الزمنيّ حاضراً في الحديث عن الحنين لتلك الديار والمنازل، إذ يفتقد الشاعر لذلك العهد وتلك الأيام، وما تخللها من أحداث جمعته بالأهل والأحبة.

- الاغتراب النفسيّ:

إنّ الكشف عن طبيعة الحياة النَّفسيَّة التي يعيشها الأديب ليس بالأمر الصعب، إذ يستطيع المتأمل في تلك الأعمال الأدبيّة أن يستشف بعض جوانب وعناصر الحياة النَّفسيَّة للأديب أو الشاعر، وذلك يتأتّى من خلال كشف الأديب عن كثير من ملامح شخصيّته وهويّته ضمن كتاباته، وهو ليس من الصعب كشفه، بل يمكن الوصول إليه بكل يسر من خلال التدقيق في طبيعة العناصر الكلاميّة التي يوردها الشاعر أو الأديب، لأنّ هذه العناصر النَّفسيَّة لها أثرها البالغ في تحديد طبيعة الحياة النَّفسيَّة التي يحياها الشاعر، وطبيعة تلك العناصر المكوّنة لشخصيّته الأدبيّة، وهذا ما يقودنا في النهاية إلى الوصول للعناصر التي تخلق الصراع في نفسيَّة الأديب أو المبدع.

واستطاع ابن حيّوس أن يبثّ للقارئ لواعج نفسه التي أخذت تئنّ بفعل عوامل وبواعث متعدّدة، فالشيب، ومفارقة الشباب، وكلام العُذَّال والواشين في الحب والمدح، من الأسباب التي أجّجت في قلبه ونفسه مشاعر الأسى والحزن، ناهيك عن الوقوف بالأطلال وتذكّر عهد المحبوبة، وما لهما من أثر في نفسه.

ونبدأ هذا المقام بهذه الأبيات التي عبَّر من خلالها ابن حيّوس عن بواعث آلامه النَّفسيَّة، فتراه يمدح وفي الوقت ذاته يشتكي زمرة الواشين والعذال، إذ وجد الأمان بالقرب من ممدوحه، وحصل على ما يأمل منه، فأعاد له شبابه وقوته بعد أن كان خائر القوى، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج1، ص32):

وجَدْتُ الغِنَى والعِزَّ والأَمْنَ والعُلَى فَلا غَرْوَ أَنْ سُدَّتْ عَلَيَّ المَذَاهِبُ

يُرِيْدُ أُنَاسٌ بِذِلَّتِي وَضَراعَتِي ولَيْسَ لِمَنْ سَرْبَلْتَهُ العِزَّ سَالِبُ

فَيَا شَائِبَ المَعرُوفِ بِالبِشْرِ مُنْعِماً أَعَدْتَ الخَبَابَ الغَضَّ والرَّأسَ شَائِبُ

ولَوْلا زَمَانٌ فِي ذَرَاكَ قَطَعْتُهُ لمَا عَادَ مِنْ شَرْخِ الشَّبِيْبَةِ ذَاهِبُ

إنَّ من أكثر الأمور التي قد تحدث أساً في نفس الشاعر وتشعره بالاضطراب، الشعور بالعجز وذهاب القوة والأنفة، فتصبح الهمم خائرة، واليد قاصرة، وهذا ما حدث مع ابن حيّوس في إحدى قصائده، حيث عبَّر عن محطات العجز وقلّة الحيلة السابقة بصورة ملوّنة بالأسى والتَّصدُّع النَّفسيّ، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج1، ص326-327):

ومَنْ لِي بِأَيَّامٍ مَضَتْ لا عَزَائِمِي مُفَلَّلَةٌ فِيْهَا ولا اللَّوْمُ رَادِعِي

فَبُدِّلْتُ مِنْ شَرْخِ الشَّبَابِ وعِشْرَةِ الأَ حِبَّةِ تَسآلَ الدّيَارِ البَلاقِعِ

عَرَتْنِي صُرُوفُ النَّائِبَاتِ فَقَصَّرَتْ ذِرَاعِي ورَدَّتْ خَائِبَاتٍ ذَرَائِعِي

ومَا خِلْتُ أَنَّ الدَّهْرَ يُلْجِئُنِي إلى زَمَانٍ يَبيْتُ العَجْزُ فِيْهِ مُضَاجِعِي

وقد أشار ابن حيّوس في أكثر من موضع إلى قضيّة تقدم سنّه، وضعف عزيمته، وهذا يُعدُّ من ألوان الاغتراب النَّفسيّ الذي يؤلم صاحبه، ويوقد في نفسه الحسرة واللوعة على تلك العزائم والهمم في عهود طوت صفحاتها الأيام، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج2، ص577):

ولَئِنْ حَنَتْ ظَهْرِي السُّنُونُ بِمُرّهَا فَالرُّمْحُ يَنْفَعُ وهُو غَيْرُ مُقَوَّمِ

وفي إحدى قصائد المدح التي وجّهها ابن حيّوس لممدوحه الوزير الدّزبري، يعكف على صهر أكثر من باعث ووازع للتعبير عن الاغتراب النَّفسيّ، وهذا الشكل يعدّ من أقسى أنواع الاغتراب النفسيّ، وذلك لأنه يشكل ملتقى وحاضنة لهموم ومآسي متعدّدة ومتنوّعة، حيث يُوحّد ابن حيّوس الاغتراب المكانيّ والزمانيّ والاجتماعيّ والنَّفسيّ في قالب واحد، ليعبّر عن كمٍّ ونوعٍ من الأحزان والاضطرابات التي تعتريه، ليبدأ مظهراً حزنه على الأيام التي انقضت بذكريات لن تعود، ويشتكي نوائب الزمان، حيث قال (ابن حيّوس، الديوان، ج1، ص57-58):

هَلْ لِلْخَلِيْطِ المُسْتَقِيلِ إِيَابُ أَمْ هَلْ لِأَيَّامٍ مَضَتْ أَعْقَابُ

سَرَتِ النَّوائِبُ عَنْكَ رَوْنَقَ مَنْ سَرَى واسْتَحْقَبَتْ لَذَّاتِكَ الأَحْقَابُ

وبعد ذلك يُظهر ابن حيّوس حزنه المتعلق بالمالكيّة مكانيّاً ومعنويّاً، فليست قريبة منه، ولا يعرض خيالها في فكره، وهل هذا الإعراض والجموح بفعل الوشاة، أم بصدق موّدته تظنّ وتتوهّم، حيث قال:

ما بَالُ طَيْفِ المَالِكِيَّةِ مُعْرِضاً ولَقَدْ عَهِدْنَا طَيْفَهَا يَنْتَابُ

أَلِرِقْبَةِ الواشِيْنَ أَوجَسَ رِيْبَةً فَارْتَاعَ أَمْ بِوِدَادِنَا يَرْتَابُ

وبعد ذلك فرغ ابن حيّوس لمحطة جديدة من محطّات الاغتراب النفسيّ، فيذكر ديار امرأة تدعى (مي) وفي هذا غزل جلّي، وقد كان ديدن الشعراء قديماً الحديث عن المرأة المعشوقة وذكر مسكنها لمواجهة مسألة الشعور بالاغتراب، لعلّ في ذلك ما يخفّف آلام وسوء حال الشاعر، فما حلّ بجسده من السقم هو نتاج بعدها عنه، حيث قال:

يَا مَيُّ هَلْ لِدُنُوّ دَارِكِ رَجْعَـــــةٌ أَمْ لِلْعِتَابِ لَدَيْكُـــمُ إِعْتَـــــابُ

لا أَرْتَجِـــي يَوْماً سُلُـــوًّا عَنْكُمُ هَيْهَـــاتَ سُـــدَّتْ دُونَهُ الأَبْوَابُ

أَوْصَابُ جِسْمِي مِنْ جِنَايَـةِ بُعْدِكُمْ والصَّبْرُ صَبْـــرٌ بَعْدَكُمْ أَوْ صَابُ

وما يعقب هذا الذكر للمحبوبة وديارها هو الدعاء لها بالسُّقيا، فتلك الديار تشكّل عهد الصّبا عند الشاعر، وتذكره بأيام تجمعه مع الأحباب، حيث قال:

دَامَتْ سَحَابَةُ تَحْتَ ظِلّ سَحَابَةٍ وجَـــرَى عَلَى دَارِ الرَّبَابِ رَبَابُ

وسَقَى بِقَاعَ الجُـونِ جَوْنٌ مُرْزِمٌ مَا لِلْذَهَابِ الغَمْرِ عَنْـــهُ ذَهَابُ

فَلَقَدْ عَهِدْتُ بِهَا مَعَاهِـــدَ لِلْصّبَا مَأْهُولَةً تَحْتَلُّهَا الأَحْبَـــــابُ

وتتوالى الأحزان على ابن حيّوس لتسكن وتتوطّن في قلبه، فهو يحيا حياة عاشق ليس للسلوان طريق إلى فؤاده، فيتجرّع من سقم البعد كأساً وكأنّها قد استخلصت من ريق أفعى، حيث قال:

لا خَامَـــــرَ السُّلْوَانُ قَلْبَ مُتَيَّمٍ هَاجَـــــتْ لَهُ فِي إِثْرِهِمْ أَطْرَابُ

كَاسٍ مِنَ الأَسْقَامِ جُـــرّعَ لِلنَّوى كَأْساً لَهَا رِيْـــقُ الحُبَابِ حَبَابُ[1]

ولم يسلم قلب الشاعر فوق ما أصابه من الأسى جرّاء البعد والتغرّب، فأحداث الدهر قد تناوبت على معاورته بأنياب مؤلمة، فإن تعب منها ناب قام غيره بتلك المهمّة، حيث قال:

وَتَعَاوَرَتْهُ نَوائِـــــــبٌ بِنُيوبِهَا إِنْ كَلَّ نَابٌ نَابَ عَنْـــــهُ نَابُ

ليصل ابن حيّوس بعد جملة المآسي هذه للتَّغرب النَّفسيّ الأعمق، فالدهر قد حدَّ أفعال يديه، وهمّته قد طالت، حيث قال:

قَصَرَ الزَّمَانُ يَدِي وطَالَتْ هِمَّتِـي فَالعَـــزْمُ لِي دُونَ الرّكَابِ رِكَابُ

(1) الحُبابُ: الحيّة / الأفعى، حَبَابُ: فقاعات تعلو الماء.

وبناءً على ما تقدّم، لقد أظهر ابن حيّوس حجم الألم والأسى الذي تركه التغرّب النَّفسيّ في داخله، فالشَّيب ومفارقة الشباب له، وتقلّب الزمان عليه بالمصائب والنوائب، وكلام العذّال والوشاة، والوقوف على الأطلال وتذكّر الديار وساكنيها، والحديث عن المحبوبة، كل ذلك كان سبباً ودافعاً بأن يشعر ابن حيّوس بالاغتراب النَّفسيّ الذي لاحظنا في بعض الشواهد أنه قد اتَّحد مع التَّغرب المكانيّ، والزمانيّ، والاجتماعيّ، لتتشكّل منه في النهاية صورة مؤلمة لقدر وحجم مشاعر الاغتراب التي عاشها الشاعر.

الخاتمة

وفي ضوء دراسة الجزئيّات السابقة، فقد توصّل الباحثان إلى النتائج التالية:

- لقد استطاع ابن حيّوس وببراعة أن يُعبّر عن مظاهر الاغتراب الاجتماعيّ الذي أحسّ به عندما فارق مجتمعه الأساسيّ، فعبَّر عن ظلم المجتمع والناس له بمختلف أشكال هذا الظلم والجور.
- لقد برع ابن حيّوس في قضيّة تضمين قصائده المدحيّة الموجهة للخلفاء والوزراء صوراً للاغتراب بمختلف أنواعه، وقد عبَّر عن بواعث هذا التَّأزُّم النَّفسي الذي عاشه حينها.
- لقد استثمر ابن حيّوس وبذكاء بعض قصائده المدحيّة استثماراً قويماً للتعبير عن بعض الأمور الشخصيّة، فنجح بإيجاد هويّته من خلال هذا الاستثمار، فذكره للأطلال والديار والدعاء لها ولساكنيها بالسُّقيا دليل على ذلك.
- استطاع ابن حيّوس أن يُعبّر عن شوقه وحنينه في اغترابه المكانيّ والزمانيّ بشكل جليّ، فذكره للأماكن بمسمّياتها، وذكره لأسماء بعض النساء يدلّل على وضوحه، وكشفه المباشر عن هذا الجانب.
- نجح ابن حيّوس بدمجه في غربته النَّفسيّة بعض ألوان الاغتراب المعهودة، كالاغتراب المكانيّ والزمانيّ والاجتماعيّ، جاعلاً هذا التَّلاقي صورة توازي حجم تلك المأساة التي عاشها الشاعر حَنِقاً، مُضطرباً، فاقداً لذاته ولهويّته.

المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيبانيّ، الكامل في التاريخ، ط1، ج8، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1997م.
- إسكندر، نبيل رمزي، الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، ط1، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 1988م.
- إسماعيل، عز الدين، الأدب وفنونه دراسة ونقد، ط1، دار الفكر العربيّ، بيروت، لبنان، (د.ت).
- الثعالبيّ، أبو منصور عبدالملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط1، ج1، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1983م.
- ابن الجوزيّة، ابن القيم، مدارج السالكين، ط3، تحقيق محمد المعتصم بالله البغداديّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ابن حزم، علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، ط1، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، مصر، 1962م.
- حماد، حسن، الاغتراب الوجوديّ، ط1، هلا للنشر والتوزيع، جامعة الزقازيق، مصر، 2008م.
- الحنبليّ، أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، ج11، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1986م.
- ابن حيّوس، الديوان، تحقيق خليل مردم بك، المطبعة الهاشميّة، دمشق، 1951م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان، ط1، ج2، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1994م.
- روسو، جان جاك، العقد الاجتماعيّ ومبادئ الحقوق السياسيّة، ط1، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1954م.

- الزركليذ، خيرالدين، الأعلام، ط15، ج4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2006م.

- الزعيم، أحلام، أبو نواس بين العبث والاغتراب والتَّمرُّد، ط1، دار العودة، بيروت، لبنان، 1981م.

- سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الفاطميّ، منشأة المعارف، الإسكندريّة، (د.ت).

- ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات – قسم الشآم–، ط2، دار المعارف، مصر، 1990م.

- عبدالباري، ماهر شعبان، التذوّق الأدبيّ طبيعته – نظريّاته – مقدّماته – معاييره – قياسه، ط3، دار الفكر، عمَّان، الأردنن 2011م.

- عبدالجبار، فالح، المقدمات الكلاسيكيّة لمفهوم الاغتراب، ط1، دار كنعان للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1991م.

- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ دمشق، ج3، دار الكتب الظاهريّة، دمشق.

- العمريّ، ابن فضل الله شهاب الدين، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، تحقيق كامل الجبوريّ ومهدي النجم، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 2010م.

- فهمي، مصطفى، علم النفس الإكلينيكيّ، ط1، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1976م.

- المبرّد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، ط3، ج3، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1997م.

- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، ط3، اليازجيّ وجماعة من اللغويّين، دار صادر، بيروت، لبنان، 1993م.

المراجع الأجنبية

- Ibn al-Athir, Ibn al-Athir, Abu al-Hasan Ali al-Shaibani, al-Kamil fi al-Tarikh, vol. 1, vol. 8, investigated by Omar Abd al-Salam Tadmury, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1997 AD.

-Iskandar, Nabil Ramzy, Alienation and the Crisis of Contemporary Man, 1st Edition, University Knowledge House, Alexandria, Egypt, 1988 AD.

-Ismail, Izz al-Din, Literature and its Arts, Study and Criticism, 1st Edition, Dar Al-Fikr Al-

Arabi, Beirut, Lebanon, (Dr. T).

-Al-Tha'alabi, Abu Mansour Abdel-Malik, The Timelessness of Time in the Goodness of the People of the Age, 1st Edition, investigated by Mufeed Qamiha, Dar Al-Kutub Al-Ilmiya, Beirut, Lebanon, 1983 AD.

- Ibn al-Jawziyyah, Ibn al-Qayyim, Madarij al-Salkin, 3rd edition, investigated by Muhammad al-Mu'tasim Billah al-Baghdadi, Dar al-Kitab al-Arabi, Lebanon, Lebanon, (D.T).

- Ibn Hazm, Ali bin Ahmed, Jamharat Ansab al-Arab, 1st edition, edited by Abd al-Salam Harun, Dar al-Ma'arif, Egypt, 1962 AD.

-Hammad, Hassan, Existential Alienation, 1st Edition, Hala for Publishing and Distribution, Zagazig University, Egypt, 2008.

- Al-Hanbali, Abu Al-Falah Abd al-Hay bin Ahmed, Gold Fragments in Akhbar Min Dahab, 1st Edition, Part 11, investigation by Mahmoud Al-Arnaout, Dar Ibn Katheer, Damascus, Beirut, 1986 AD.

- Ibn Hayyus, Al-Diwan, investigated by Khalil Mardam Bey, The Hashemite Press, Damascus, 1951 AD.

-Ibn Khalkan, Abu al-Abbas Shams al-Din, Deaths of Notables in News of the Sons of Time, 1st Edition, Part 2, investigated by Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, Lebanon, 1994 AD.

- Rousseau, Jean-Jacques, The Social Contract and Principles of Political Rights, 1st edition, translated by Adel Zuaiter, Dar Al-Maarif, Egypt, Cairo, 1954 AD.

- Al-Zarkali, Khair Al-Din, Al-Alam, 15th edition, Part 4, Dar Al-Ilm for Millions, Beirut, Lebanon, 2006 AD.

-Leader, Ahlam, Abu Nawas between absurdity, alienation and rebellion, 1st edition, Dar Al-Awda, Beirut, Lebanon, 1981 AD.

-Salam, Muhammad Zaghloul, Literature in the Fatimid Era, Mansha'at al-Ma'arif, Alexandria, (Dr. T).

- Schacht R: Alienation, George, Allen/Unwin Ltd. London, 1972.

- Dhaif, Shawqi, The Age of States and Emirates - Department of the Levant -, 2nd Edition,

Dar Al-Maarif, Egypt, 1990 AD.

-Abdel-Bari, Maher Shaaban, Literary Appreciation: Its Nature - Theories - Introductions - Criteria - Measurement, 3rd Edition, Dar Al-Fikr, Amman, Jordan, 2011 AD.

-Abdul-Jabbar, Faleh, Classic Introductions to the Concept of Alienation, 1st Edition, Dar Kanaan for Publishing and Distribution, Damascus, Syria, 1991 AD.

- Ibn Asaker, Abu al-Qasim Ali ibn al-Hasan, History of Damascus, vol. 3, Dar al-Kutub al-Zahiriyyah, Damascus.

- Al-Omari, Ibn Fadlallah Shihab al-Din, Pathways to Visions in the Kingdoms of Al-Amsar, 1st edition, investigated by Kamel al-Jubouri and Mahdi al-Najm, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, 2010 AD.

- Fahmy, Mostafa, Clinical Psychology, 1st edition, Dar Misr for Printing and Publishing, Cairo, Egypt, 1976 AD.

- Al-Mubarrad, Muhammad bin Yazid, Al-Kamil in Language and Literature, 3rd Edition, Part 3, investigated by Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Dar Al-Fikr Al-Arabi, Cairo, 1997 AD.

- Ibn Manzoor, Jamal Al-Din, Lisan Al-Arab, 3rd edition, Al-Yazji and a group of linguists, Dar Sader, Beirut, Lebanon, 1993 AD.

- Schacht R: Alienation, George, Allen/Unwin Ltd. London, 1972.